بعض أبطال النقـــد
وأثرهم فى نهضة الآداب الأوربية

عند ما قرأت مقال الأستاذ صاحب (الرسالة) فى فوضى النقد فى مصر، ثم قرأت فى الأسبوع التالى مقال الأستاذ أحمد أمين، بدا لى أن أقدم للقراء طائفة من النقاد الأوربيين كان لهم أكبر الأثر فى نهضة الآداب كل فى مملكته. وقد اشترك هؤلاء فى فضيلة واحدة جعلت لكتاباتهم قيمتها، تلك الفضيلة هى أنهم لم يقيموا من أنفسهم قضاة يصدرون أحكامهم على الأدباء، ولا اتخذوا من أنفسهم شتامين سابين، يخرجون عن موضوع النقد إلى الخوض فى الأعراض وانتقاص الشاعر أو الكاتب بكل ما يضع من قدره، ويحط فى أعين القراء من شأنه ... بل هم كانوا يعرضون بضاعة الأدباء على القراء ويعينونهم على تقديرها بالنقد والتحليل، ويلفتون أنظارهم إلى ما فيها من جمال أو قبح، ثم يتركونهم يصدرون أحكامهم من تلقاء أنفسهم. وأحسب أن لو اتبعت هذه الطريقة فى مصر لعادت على الأدب والأدباء بأكبر النفع، ولا سيما إذا لم تقحم السياسة والأحن والتعصب فى المسائل الأدبية التى ينبغى أن تظل بريئة خالصة لوجه الحق والأدب

أما هؤلاء النقاد الأوربيون فهم: لسنج الألمانى، وسانت بيف الفرنسى، وبلنسكى الروسى، ثم كولردج، وشارل لامب، وهازلت، وأرنولد الانجليز

١ — لسنج

كانت أوربا كلها إلى ما قبل القرن الثامن عشر تُميّر ألمانيا بالافلاس الأدبى، وكانت ألمانيا تنظر إلى خصيمتها فرنسا نظرة كلها حسد وكلها غيرة، وإن كان هذا الحسد وتلك الغيرة لم يمنعاها من أن تكون التلميذة المؤدبة المعترفة بالجميل لفرنسا، ذلك لانتشار الأدب الفرنسى بين الألمان فى ذلك الوقت انتشارا كان يأخذ السبل على كل الآداب الأوربية، فما يستطيع أحدها النفاذ إلى ألمانيا، بما فى ذلك الأدب الانجليزى الذى كان بطبعه أقرب إلى ذوق الألمان. فلما ولد جوتهولد إفرايم لسنج Lessing سنة ١٧٢٩ دقت البشائر فى ألمانيا كلها، وأخذ الكابوس الذى كان يجثم على صدرها ينظر إلى هذا الطفل ويعد العدة للرحيل؛

قضى لسنج أيامه الأولى متنقلاً بين ليبزج وبرلين؛ وكان أبواه قد نذراه للكنيسة، لما كان للرهبان فى تلك الآونة من عظيم الشأن فى ألمانيا؛ ومن هنا كان الصراع الهائل فى نفس الشاب بين ميوله الأدبية الفطرية وبين التزمت الدينى فى الفكر الذى يقسر عليه رجال الدين عادة، فصبأ من تلقاء نفسه، واحترف الأدب

وكان لسنج يبغض الأدب الفرنسى ويبغض الأدباء الفرنسيين وفى مقدمتهم فولتير؛ وأكبر الظن أنه كان يصدر عن عصبية وطنية صارخة لما كان بين الدولتين من منافسات وثارات. ولم يبرح يكتب ويكتب، ولم يبرح المسرح يجتذبه اليه، فكف أول الأمر ينقد الدرامات الفرنسية التى كانت تكتنح المسرح الألمانى، ويظهر الناس على ما فيها من لبونة لا تتفق والقوة التى تنشدها ألمانيا. ولم يقف عند حد الكتابة فى الصحف والمجلات، بل ألف كتابه القيم (تاريخ المسرح) وأصدره سنة ١٧٥٠، وهو كتاب خطير حسن يلفت فيه لسنج أنظار قومه بشدة إلى روائع المسرح الاغريقى، ويقفهم به على أحسن ما جادت به قرائح إسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيدز وأرسطوفان. ثم يدعوهم به إلى الايمان باليونان والكفر بفرنسا. وكان هذا الكتاب أول محاولة صادقة لاحياء الدرامة الكلاسيكية، وقد هرع اليه أدباء ألمانيا فتخذوا منه إنجيلا يبشر بأدب جديد؛ وافتتن به جوته فبشر به؛ وجعله شيللر ناموسه الأكبر الى أدب المجد والخلود

وكان لسنج يعجب أيما إعجاب بشاكسبير، فدأب على الدعوة له فى ألمانيا حتى أفلح أخيراً فى صرف الشباب الألمانى اليه. وقد حفظ له الانجليز هذا الجميل فنقلوا الى لغتهم كل ما كان يكتب ويؤلف

وقد تمت هزيمة الاتجاه الفرنسى فى ألمانيا حينما أصدر لسنج مأساته الخالدة (الآنسة سارة سامبسون) سنة ١٧٥٥ التى كانت بحق أول ثمار الأدب القومى الألمانى المستقل. وبعد هذه الدرامة

فرغ لسنج للنقد فأرشد ألمانيا كلها لما فيه خيرها ولما فيه صلاح نهضتها

وفى سنة ١٧٦٦ أصدر لسنج قصته البارعة (لاوكون) التى اتفق كل مؤرخى الآداب على أنها أعظم نتاج أدبى صدر فى القرن الثامن عشر بطوله . والقصة تدور على حوادث النبى الطروادى لاوكون الذى وعظ قومه ألا يقربوا الحصان الخشبى وألا يدخلوه الى مدينتهم لأنه سيكون شراً عليهم . وقد لخصت (الرسالة) هذه الحادثة فى باب القصص فى آخر حروب طروادة . وبحسب هذه القصة أن يقول فيها جوته : « يجب أن نرتد طفرة الى ميعة الشباب وحرارته كى ندرك حقيقة الأثر العميق الذى تركه فينا لسنج بقصته العبقرية (لاوكون) التى انتشلتنا من صفوف المتفرجين التاعسين البلداء الى صفوف المفكرين المنتجين العظماء ! » وقد عرض لسنج فى ثنايا القصة الى ضروب من النقد الحر المعتدل البعيد من الصلف جعلتها قانوناً عاماً لهذا الفن الذى هب أدباؤنا اليوم يشكون مر الشكوى من التطفلين عليه بغير الحق

٢ — سانت بيف (١٨٠٤ — ١٨٦٩)

لا يستغنى طالب الأدب الفرنسى عن كتاب Causeries du Lundi (أحاديث الاثنين) لسانت بيف ؛ بل لا نبالغ إذا جزمنا أنه لا غناء لمتأدب فى أى أمة عن هذا الكتاب الذى لا يعدله كتاب فى النقد الأدبى فى العالم . ولم يكن لورد مورلى مبالغاً حين قال إن من شاء استيعاب الأدب الفرنسى كله فحسبه أحاديث الاثنين لسانت بيف ، فهى ذوق وذخيرة وعدالة ومفتاح ذهبى لكل من يستغلق عليه شىء من هذا الأدب الحافل

وقد عرض سانت بيف لطائفة كبيرة من الأدباء الأنجليز والاغريق فى أحاديثه ، فحلل آدابهم وعرضهم على قرائه عرضاً علمياً شائقاً شهد بعدالته وسموه كبار النقاد الانجليز أنفسهم ، وإن يكن قد قدح فى طريقة الناقد الانجليزى الكبير صموئيل جونسون التى عرض بها لجمهرة من الشعراء فى كتابه (حياة الشعراء Lives of the Poets) . ولم يكن سانت بيف متعسفاً فى هذا القدح ، بل كان صائب الرأى فيه الى حد بعيد ؛ ويكفى أن نعلم أن كتاب جونسون هو مجموعة مقدمات لدواوين الشعراء كان يطلب منه تقديمها الى القراء بها ، فكان لا يعنى فيها إلا بابراز محاسن الشاعر والاكبار من شأنه غاضاً الطرف عن عيوبه . يكفى أن نعرف هذا لنتفق مع بيف فى إقلاله من شأن جونسون

وكما قدح بيف فى طريقة جونسون فى نقد الآداب ، فكذلك لم ترضه طريقة مواطنه الكبير بوالو Boileau « لأنه كان ينظر الى الأديب نظرة سطحية ، ثم سرعان ما يصدر حكمه عليه ؛ والناقد العادل ينبغى أن يستعرض حياة الأديب وعصره وبيئته وظروفه فيشرحها للقراء شرحاً مسهباً ثم يدعهم يصدرون أحكامهم ؛ فليس من وظيفة الناقد أن يكون قاضياً . . . »

وأحاديث الاثنين فصول ممتعة كان يحررها بيف فى إحدى المجلات الدورية ثم جمعها وأصدرها فى عدة مجلدات وأردفها بكتابه الرائع فى النقد والأدب والفلسفة Port Royal وقد تناول فيه الحركة الذهنية برمتها فى عهد لويس الرابع عشر

٣ — بلنسكى Belinsky (١٨١١ — ١٨٤٧)

يرجع تاريخ النقد الأدبى فى روسيا إلى عهد الشاعر العظيم بوشكين (١٧٩٩ — ١٨٣٧) وذلك للفصول الممتعة القوية التى كان يوالى نشرها فى المجلة الروسية (الرسول الأوروبى) ينقد فيها الشعر والشعراء منذ فجر النهضة الروسية إلى زمنه . وقد أثارت هذه الفصول حماسة الشباب ولفتتهم إلى درر الآداب العالمية ، وربت فيهم ذوقاً خالصاً شفافاً يزن بالنظرة الواحدة قيم الأدب بنوعيه فى ذلك العصر من شعر ونثر . وقد استجاب لفصول بوشكين زعماء الشباب من أدباء روسيا واجتذبت بعض أمراء البيت القيصرى وفى مقدمتهم الأمير الأديب ڤيازمسكى الذى نزل الى ميدان النقد بقلمه — على نهج بوشكين — فى مجلة (كارامزين) (١٨٠٨ — ١٨٧٨) — وانتظمت حركة النقد على صدى سانت بيف حين دخل عنصر الاحتراف فى الصحافة الروسية وقطعت شوطاً كبيراً على يد الصحافى القدير بولفوى Polevoy الذى لفت اليه الأنظار بفصوله الضافية فى نقد الأدب والحياة والتقاليد الروسية ، وإن أغضب الفئة الرجعية التى لا تخلو منها أمة ما . . .

بيد أن هذه الحركة المباركة لم تبلغ أوجها إلا حين تسلمها فتاها الأكبر فخر أدباء روسيا بلنسكى ، الذى وثب من وسط وضيع وأسرة فقيرة وتعليم ناقص مبتور ، فاستطاع أن يتسنم أسمى

ذروة بين مواطنيه ، وأن يرسم الخطط لما ينبغى أن يكون عليه الأدب والاجتماع فى روسيا جميعاً . وكأننا به قد تسلم تراث أسلافه بوشكين ولرمونتوف وجوجول ليغربله ويسقط ما فيه من نفايات ، كيما يخلق منه قادة الأدب العالمى الجديد : جوتشريف وهرزن ودستوفسكى وتولوستوى وشيخوف وجوركى . ويحسبك أن تعلم أن الأربعة الأول قد تتلمذوا على بلنسكى ، ورضعوا لبانه ودرجوا فى حجره ، وثقفوا عنه فلسفة هجل وجيته ، وطرائف شاكسبير وروائع الأدب الفرنسى ، وآمنوا عن سبيله ، بأن الفن للحياة ، وليس الفن للفن

ولشد ما كانت روسيا تشبه مصر اليوم من الوجهة الأدبية ، فكان فيها معسكران كبيران ينزع أحدهما الى التجديد والأخذ عن الغرب ، وتسموا باسم (الثائرين) وكان على رأسهم بلنسكى يعاونه ويشد أزره الناقد المحاضر الكبير يوسف لوما يستر ، ويساعدهما الأديب الثقة والناقد المحقق هرزن . أما المعسكر الآخر فهم فئة السلافيين Slavophiles ، وكانوا يتعصبون لروسيا القديمة تعصباً أعمى ، وكان أدباؤهم ينقدون معسكر الثائرين نقداً كله شعوذة وكله رمى بالكفر والمروق من الدين والوطنية

وقد أخذ الأستاذ بركر Brückner الألمانى فى كتابه (تاريخ الآداب الروسية) على بلنسكى وأضرابه من النقاد الروسيين ما كانوا يحيدون به أحياناً عن قوانين النقد التى وضعها سانت بيف ولسنج وأرنولد ، وقال إنهم حين كانوا يفعلون ذلك كان يجىء نقدهم سطحياً قليل الغناء . وقد رد الأستاذ بارنج (Maurice Baring) فى كتابه (خلاصة الأدب الروسى) على هذا المأخذ بأن بلنسكى ومدرسته كانت تنشد قبل كل شىء خلق أدب قومى روسى بكل معنى الكلمة ينافس الآداب الأوروبية التى كانت تطغى على روسيا نفسها فتجذب اليها جمهور القراء الروسيين ... لذلك كان يضطر أحياناً الى منازلة خصومه بأشد من أسلحتهم فى المهاترة والثلب !

٤ — كولردج وشارل لامب

لو أن كولردج (١٧٧٢ — ١٨٣٤) قصر جهوده على النقد دون النظم لأفاد الأدب الانجليزى أكثر مما أفاده بشعره ، وإن يكن له فى هذا الميدان جهده المشكور . ولقد كانت طريقته فى النقد مثل طريقة مواطنه وصديقه شارل لامب (١٧٧٥ — ١٨٣٤) وإن اختص الأول بعرض أدب شاكسبير أكثر من أى شىء آخر . وكل النقاد الحديثين فى انجلترا يحترمون آراءه فى شاعرهم الأكبر ويعتمدون عليها . وشارل لامب هو صاحب النظرية العجيبة فى نقد الآداب والتى تتلخص فى « وجوب اعتماد الناقد على ذوقه كحاسة سادسة لا على عقله فقط فى نقد الأدب ! » وهو يشرك الروح فى النقد ، ويطلب من الشاعر أن يغنى ويصور ، ويبكى ويتألم ، لا أن ينظم حقائق هذه الدنيا فيكون شعره جافا ثقيلاً على القلب . فالروح عند شارل للشعر ، والعقل للعلم . وقد كان لامب يثير شغف القراء وإعجابهم بفصوله التى كان ينشرها فى (London Magazine) بامضاء (إليا) ؛ ولولا أثرته ومدحه لذاته فى هذه الفصول لرفعته الى أسمى مراتب النقاد

٥ — هازلت (١٧٧٨ — ١٨٣٠)

لا تقل مكانة وليم هازلت فى النقد عن مكانة سانت بيف ؛ ويعده الانجليز واضع أسس النقد الأدبى الحديث فى انجلترا ، وهم يقبلون على قراءته إلى اليوم كما يقبل الفرنسيون على قراءة سانت بيف ، وكما يقبل الألمان على لسنج ، والروس على بلنسكى . ويذكر هازلت أن سبب شغفه بالأدب وبالنقد خاصة هو لقاؤه الأول بكولردج الذى كان صديق أبيه ، وكان يزوره فى منزله كأعز ضيف عليه . ولقد حاول هازلت مرة أن يهجر الأدب إلى الفنون ، وشغف فعلاً بالتصوير والرسم ولكنه فشل ، فحطم ريشته وامتشق يراعته ، وكان ذلك من حسن حظ الأدب

وما كاد هازلت ينشر فصوله الأولى فى النقد فى احدى المجلات حتى استرعى انتباه الدوائر الأدبية العليا ، وحتى دعته مؤسسة رسل لالقاء بضع محاضرات فى « نشوء وترقى الفلسفة الحديثة » ، ثم فى « الشعر والشعراء الانجليز » و « كتاب الكوميدى الانجليز » ، و « عصر إليزابث » . ودعته صحيفة المورننج كرونكل لتحرير قسم النقد المسرحى فيها . وأخذ بعد ذلك ينشر فصوله عن (الدائرة المستديرة) فى صحف التيمس والتشامبيون والأجزامينر ، واتصل بمجلة لندن فنشر فيها حديث المائدة وبحثه القيم عن (روح العصر) ، وغير ذلك من الموضوعات الشائقة . وقد شهد البروفيسر سينتسبرى — ولم يزل — بأن فصول هازلت فى النقد قد فاقت غيرها فى جميع الأمم ، ولم يستثن سانت بيف — ولولا ما كان من اعجاب هازلت بنابليون لعبده الانجليز ولقدسوه تقديساً